عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

٢ — نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

جانب الفكاهة في هذه القصة يغلب جانب الجد فيها ، وان كانت الرواية جداً خالصاً في جوهرها ولبها ، فالفكاهة هنا ليست أكثر من اطار ضمنهُ المؤلف لوحاته الثمينة ، وعليك ان تنفذ من وراء هذا الرواء الخارجي الى ما هنالك من حقائق الوجود والحياة ، و «عودة الروح» ككل اعمال توفيق الحكيم لها ظاهرها الملموس الذي لا تخطئه النظرة العجلى ، والقراءة العابرة ، ولها هذا الجانب الخفي الذي عليك ان تغوص وراءه لتصل الى حقيقته ، ولتفهمه حق الفهم ، والاَّ فقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء ، او انت في الحقيقة لم تفهم شيئاً ، ولم تدرك من عمل المؤلف ما كان عليك ان تدركه بالامعان الطويل ، والدرس الطويل . ومن هنا وقع بعض الكتّاب في تقدم لاعمال هذا المؤلف النابه في اخطاء مضحكة تثير كثيراً من الاشفاق والسخرية ، لانهم اكتفوا بهذا الظاهر البرّاق الذي لا يخطئه رجل الشارع ، ولم ينفذوا الى ما وراءه ، ضنًّا بالجهد وايثاراً للراحة والعافية ، او قصراً في الفهم وعيًّا في الادراك لحقائق الاشياء

وقد تمثل « عودة الروح » قوى الخلق والابداع في توفيق الحكيم ، وتعدد هذه القوى واختلافها اكثر مما تمثلها أية قصة اخرى من قصصه المتعددة ، والمجال الذي يتسع للمؤلف في حوالي خمسمائة صفحة لا يتسع له في ثلث هذا او نحو ذلك . و «عودة الروح» هي القصة الوحيدة Novel التي كتبها توفيق الحكيم ، بينما له مسرحيات كثيرة ، وفي الفن القصصي تتسع دائرة العمل الى اوسع الرحاب ، فمن طبيعة هذا الفن الاستطراد والتفصيل والشرح الوافي والاحاطة الكاملة ، بيد ان المؤلف مقيد في مسرحياته بحدود ضيقة ثقيلة متعددة ، ومن طبيعة الفن المسرحي الايجاز والتركيز . وبعد ، فان الفوارق بين الفنين من الوضوح والبداهة بحيث لا تخفى على احد ، ومن هنا كانت «عودة الروح» من ناحية تمثيلها لتوفيق الحكيم أتم واكمل من كل مسرحياته الاخرى ، فاذا كانت في كل مسرحية ناحية من قوى الخلق والتفكير لهذا المؤلف ، فانك تجد في هذه القصة كل هذه النواحي والجوانب مجتمعة محشودة في صعيد واحد ، او هنا — اذا استعرنا تعبير المؤلف — الكل في واحد ! !

رأيت جانباً من هذه الصور الفكهة التي برع المؤلف في خلقها وعرضها كل البراعة في شخصياته التي عرضنا لتحليلها ، كما لمست جانباً آخر منها في بعض الحوادث التي جاء ذكرها عرضاً في سياق التحليل ، واليك هذه الصورة الطريفة لوالدة «محسن» التركية الاصل التي لا تنسى في اشد

الاوقات حرجاً وضيقاً ان تتحدث عن حتبها ونسبها اذ تشتبك مع والد « محسن » الفلاح في عراك مضحك . ثم هذا الوصف الصادق الساخر للدكتور حلمي والد سنية في مجلسه اليومي على باب صيدلية مجاورة لمنزله مع لفيف من امثاله أرباب المعاشات يحدثهم عن السودان ، ولا ينسى هو الآخر اذ يتعصب لشرفه وكرامته ان يذكر وقائع القتال التي حضرها وبخاصة واقعة أم درمان . وعندك الى جانب هذا الحادثتان الطريفتان اللتان وقعتا للعالمة « شخلع» في حفلتي زفاف دعيت لاحيائهما . ثم اليك المشهد الخلاب الذي يتتبع فيه «مصطفى» خطى «سنية» لاول مرة ، فاذا بها في عيادة طبيب لا يدري اي الامراض يعالج حتى يستطيع ان يستعد لمقابلته بمرض يناسب المقام . . . وترتبك ويقع في حيرة شديدة ويتصرف تصرفاً يثير في نفسك الضحك والاشفاق معاً

والى جانب قوة الفكاهة والسخرية في المؤلف تجد ملكة التصوير والوصف قوية بارزة ، فالمؤلف يصف لك كثيراً من الشخصيات وكثيراً من الاماكن ، ويصور لك كثيراً من الحوادث والمشاهد فتلمس في كل هذا قوة الفنان المبدع ؛ ومن أبلغ المشاهد التي تتمثل فيها هذه القوة في اكمل صورها المشهد الذي يصف لك فيه منزل الساحر « الشيخ سمحان » الذي قصدته زنوبة ، وحال النساء الجالسات وما يخالجهن من شعور وفن فكر

وتجد هذه الصورة الدقيقة لكثير من المشاهد والعادات المصرية ، في وصف المؤلف لقهوة (المعلم شحاته) يعطيك للقهوة « البلدي » وصفاً بارعاً كاملاً ، كما ينقل اليك في اسطر قلائل وصفاً شاملاً محيطاً (للموسكي) . وفي حديثه عن « شخلع » العالمة تتمثل لك هذه الشخصية التي كانت في وقت من الاوقات اساساً في صميم حياة المجتمع المصري ، في افراحه ولياليه الساهرات

الى جانب هذا تلمس بين سطور القصة قوة المؤلف في التحليل والغوص وراء خبايا النفس وخلجات القلب ، وابرازها ابرازاً قوياً واضحاً على تعقدها واضطرابها ، وقد ذكرت لك عند ما حدثتك عن « سنية » هذا المشهد الذي تلتقي فيه نظرتها « بمصطفى » لاول مرة وقد حلله المؤلف تحليلاً رائعاً . ومن الآيات في هذا الباب مشهد الوداع بين « سنية » و « محسن » عند ما زارها قبيل سفره الى العزبة ، وهو يكاد يبوح لها بحبه فيمنعه الحياء وقلة التجربة ، وهي تكاد تلمح هذا الحب الذي يضج به قلب الشاب فتسر به في عجل ، وان كانت قد ارتاحت اليه . كذلك تقرأ في ثنايا القصة هذا التحليل الدقيق لما انتاب « محسن » من شتى العواطف عند ما وصله خطاب « سنية » او على الاصح الخطاب الذي توهم انه منها ، وتعرض لنا هنا قضية العقل والقلب كما عرضت لنا في « اهل الكهف » . و « محسن » مهيض الجناح بين هاتين القوتين الهائلتين ، فحيناً الغلبة للعقل فمحسن يائس كل اليأس ، وحيناً الغلبة للقلب فمحسن راج كل الرجاء . ويبلغ سلطان القلب عليه حيناً مبلغاً قوياً حتى ليغالط نفسه في الحقيقة المروعة التي صرحت له بها « زنوبة » اذ اطلعته على

حقيقة الخطاب وان الذي كتبه « عرفه الجي » فعلاً ... يغالطه « محسن » نفسه في هذه الحقيقة التي لا شك فيها ويحتفظ بالخطاب كأثر مقدس من « سنية » ! ! بل ها هو يفزع ويتمملونه اذ يقرأه « سليم » الخطاب ولا يجد فيه هذه المعاني التي يفرضها « محسن » فرضاً على هذه الكلمات التافهة التي تضمنها الخطاب . و« سليم » لم يفعل اكثر مما فعله « محسن » نفسه في فترات كان العقل يسود فيها تفكيره . ويصل بمحسن الوهم الى ان يعتقد ان الامر جد . وان « سنية » ارسلت له هذا الخطاب حقاً ، وانه هو الملوم لانه لم يزرها بعد عودته من السفر . وتحت تأثير هذا الوهم يذهب « محسن » فعلاً لزيارة « سنية »

« وكأنما الخيال واستمراره اعاره في نظره قوة الحقيقة . . . او ان الوهم انقلب عقيدة . وأنى للحقيقة ان تهزم العقيدة ! الا ان يهزم العقل القلب ! ؟ » وهذه هي العقيدة في اسمى مظاهرها ، او قل ان هذا هو الايمان المطلق لا يحده شيء ، ولا يعوقه شيء عن ان يسمو فوق مدارك العقل وقوى التفكير . فاذا رجعنا الى ما كنا فيه من الحديث عن براعة المؤلف في تحليل نفوس ابطاله كان لزاماً عليّ ان اشير الى هذا التحليل الدقيق الذي نرى منه كيف ان « مصطفى » الذي ظلّ الاسابيع الطوال جالساً على القهوة ، عاطلاً لا همّ له الا تزجية الفراغ وقتل الوقت ، « مصطفى » هذا يكاد يقتله الملل والضيق لانهُ جلس ذات صباح زهاء ساعة ولم تفتح نافذة منزل « سنية » ويراها ! ! وييأس من رؤيتها فسأل نفسه فيما اذن جلوسه في القهوة ؟ ! » ونسي انهُ كان يجلس بالقهوة دائماً ... وانهُ كان ينفق الساعات الطوال فأملّ كما فعل اليوم ولم يمض على جلوسه ساعة »

« فان لم يكن قد فكر من قبل في القيام بهذه السرعة فلأنهُ لم يكن ينتظر شيئاً ، ومن لا ينتظر شيئاً يستطيع ان يقعد العمر حتى العفن وحتى يأكله الدود وهو في مكانه »

ونجد هنا وهناك في ثنايا القصة ومضات صغيرة ، من كلمة عارضة ، او اشارة خاطفة ، او جملة عابرة ، ينطوي تحتها الكثير الجم من المعاني والصور ، وانها لتتم لك الصورة التي يريدها المؤلف حتى كأنما نفثت فيها الروح والحياة . فصورة العسكرية الهازلة المضحكة في « سليم » لم تكن ليتم لها هذا الابداع في التصوير لولا « بدلة التشريفة » التي ارتداها عند زيارته بيت « سنية » ليصلح البيانو . وكان « محسن » يقرأ في ديوان « مهيار » فاذا تمثل في بعض حالاته ببيت من الشعر : تمثل ببيت لمهيار ، وهذا طبيعي ، ولكن هذا هو الاعجاز في مقدرة المؤلف اذ يأتي لك بالصورة التي تحس فيها الطبيعة المألوفة في غير تكلف ولا تصنع ، حتى لتمر بها دون توقف او تمعن . وهذه هي الدقة في الفن ؛ ان تخفي الفن فلا يبدو الا أثره ، وكأنهُ من صنع الحياة نفسها لا من عمل الفنان المبدع . فاذا وقف « محسن » على ضريح السيدة وقد امتلأ قلبه باليأس من حب « سنية » امسك بهداب الضريح وتشبث بحديده ولم يقل اكثر من « ياسيدة زينب » وفي هاتين الكلمتين آلام وآمال ؛ بل حياة كاملة . وكلمة المحزون المتهدم اذ يهمس وقت ضيقه ويأسه « يارب ... » فيها من الفجيعة والمرارة ؛ ومن الحزن والاسى ، ثم من التضرع والرجاء ، والامل والتطلع ، ومن عشرات بل مئات المعاني ما لا تشرحهُ المجلدات

الضخام . ومما يجيء على قياس هذا ويعتبر من آيات الدقة في تحليل عواطف ابطال القصة ، ان كل فرد من افراد الشعب لا يكاد يداخله حب « سنية » حتى يحس وكأنهُ خلق خلقاً جديداً ، ويعود الى المنزل ليرى ان الحياة التي يحياها وسط « الشعب » حياة لا تليق به ، او انهم ليعجبون ، كل بدوره ، كيف استطاعوا عليها الى اليوم صبراً ! ! على اختلاف كبير بينهم في سبب هذا الضيق الذي احسوه

وشعور المرء بعد ان يداخله احساس قوي قاهر كالحب ، غير شعوره قبل ذلك . كذلك لم تنتبه « سنية » لما حباها الله من جمال وفتنة الا بعد ان تيقظت فيها الانثى .... بعد ان احبت « مصطفى » . ثم ما أصدق هذا التحليل للصلة بين محسن وسليم وعبده تجاه حبهم لسنية ، فأيّما منهم احسّ الاثنان الآخران انهُ يحبها تحالفا عليه ، فاذا عرضت لهما الفرصة المناسبة سخرا منهُ وهزئا به

وكما يكتشف ابطالنا الثلاثة فجأة غرابة هذه الحياة التي عاشوها الى تلك الساعة ، الى ان احبّوا سنية ، كذلك تنبه « مصطفى » فجأة ، بعد ان احب سنية ، الى قذارة قهوة المعلم شحاته ..... وهو الذي قضى فيها شهرين قبل ذلك ولم ينتبه لهذا . وتنبهت « سنية » ، بعد ان احبت « مصطفى » الى ان شرفتهُ تحاذي نافذة حجرتها ، فكل بطل في القصة يكتشف بدوره شيئاً له علاقة بالعاطفة الجديدة التي طرأت عليه ، وبالمخلوق الجديد الذي طلع في سماء حياته

ثم هذا « محسن » يلقي نظرة على منزل اسرته في دمنهور عند وصوله بالاجازة ، ونظرة اخرى على منزل اعمامه في القاهرة ، منزل « الشعب » ، عند عودته ، ولكن شتان ما بين النظرتين ، فالاولى تحس فيها نظرة الغريب عن البيئة والوسط ، والثانية نظرة العائد الى ارض الوطن ، الآيب الى الاهل والاخوان ، وقد يبدو لك هذا غريباً ، ولكن المؤلف يحلل لك هذا تحليلاً دقيقاً يرد به الامور الى حقائقها ، وخلجة النفس الى مبعثها وعلتها ، ويريك ان ام محسن تمسها تحس بهذا الفارق بينها وبين ابنها ، ولو استرسلنا لعرضنا لمشاهد القصة كلها واحداً واحداً ، ففيها كلها دون استثناء تبدو ملكة التحليل النفساني في المؤلف قوية بارزة ، كل القوة والبروز . قلنا ان من طبيعة الفن القصصي الاستطراد والاحاطة والسرد الطويل . والمؤلف ينتهز لهذا كله أنسب الفرص وأبرعها ، وانه لينحرف بك احياناً عن مجرى القصة فلا تحس بذلك لانه يخلق له الفرصة العارضة التي تلائمه كل الملاءمة ، وهذه قصة « شخلع » وحوادثها جاءت عرضاً على لسان « محسن » اذ يقصها بمناسبة ما أبدته « سنية » من الاعجاب بمهارته في الغناء ، فيذكر لها انهُ درسه على « شخلع » ثم يمضي محدثاً عن استاذه

ولننتهي من الحديث عن توفيق الحكيم القصصي بعد ان عرضنا لبعض قوى الخلق والابداع فيه ، لنفرغ قليلاً لتوفيق الحكيم الباحث المفكر ، ولما يعرض من قضايا في ثنايا القصة ، على اني اريد ان احذرك من هذا المؤلف فهو ماكر شديد المكر ، داهية كبير الدهاء ، يحلو له ان يسخر من القارىء والناقد ، فيسخر منهما ولكن في حذق كثير ومهارة يحسد عليها ، خلق الفرصة المناسبة لدخول « زنوبة » و « محسن » منزل « سنية » ثم « مبروك » وافسد سلك الكهرباء

ليجد « لبيبه » عذراً في زيارة منزل الجيران ، وبقي لديه « سليم » من افراد الشعب وكان حقاً لسياق الحادثة ان يقتحم هو الآخر منزل « سنية » وكان من الغريب حقاً ان يفسد البيانو هذه المرة لتخلق الفرصة المناسبة « لسليم » وأحس المؤلف ان الناقد يستطيع هنا ان يدخل أنفه كما يقولون ؛ ليبدي عجبه من هذه الفرص التي تتاح لافراد « الشعب » الواحد بعد الآخر ، فبدأ هذا المشهد قائلاً « لا أحد يدري ان كانت هي مداعبات القدر ام مداعبات شخص من البشر . . . . » وأحال على القدر خلق هذه الفرصة الجديدة لسليم ، وكأنه — اي المؤلف — لا عذر له في ذلك ولا حيلة !! واعترف معي بأن المؤلف يمكر بنا غاية المكر ، بل قل انه ماهر لبق ، وقل معي بأن نواحي القدرة والابداع في ملكاته فاقت كل حد ، ووسعت كل شيء

* * *

من أبرز الصور الوضاحة النيرة في هذه القصة روح التضامن والاجتماع التي يبثها المؤلف في كل سطر ؛ في اخلاق كل شخصية ، وفي تضاعيف كل حادثة ؛ وفي علاقة الابطال والحادثات بعضها ببعض ، وانها لتتمثل لك في حياة « الشعب » أبدع تمثيل ، في هذا الارتباط الذي يجمعهم في الحس والشعور والعاطفة ، في هذا التعلق الغريب كل فرد منهم بالآخرين ، حتى لنجد ان « محسن » اقرب روحاً وألفة الى اعمامه منه الى اهله ، ثم هذه الوحدة الرائعة في اجتماعهم حول « محسن » اذ يحسون بألمه ، وغرقت شعورهم الفردية في عاطفة المجموع ، وكأنما أصبح « الكل في واحد » وهذا « عبده » اذ يعلم باتصال « سنية » بمحسن يحس « انه كان احب اليه الف مرة ان تختار سنية سليماً او محسناً من ان تختار هذا الغريب . . . »

« ولاحظ وهو يتكلم وينور انما يتكلم باسمهم جميعاً لا باسمه وحده فقط » ثم هاهم جميعاً تأخذهم هزة جنونية من الفرح والسرور اذ يظنون ان خطاباً وصل لمحسن من سنية ، وكأنما هو لهم جميعاً !! ويرتاح محسن « الى ان ماله أصبح ملكاً للجميع . . . . » « ورضي ان يذهب لمقابلة سنية علّه يأتي بنتيجة يفرح بها الشعب » وليس ابعد من هذا انكاراً للذاتية في سبيل المجموع ، وليس اروع من هذا تمثيلاً لروح الاجتماع التي تسود القصة ، وتتمثل في بعض صورها القاتمة في حياة « الشعب » كما تتمثل في حياة القرية ، وفي هذا التضامن القوي العجيب بين الفلاحين . . . ، في تقاسم البلوى ومشاطرة المصائب ، كما فعلوا مع الرجل الذي مات ماشيته . وتتمثل لك هذه الروح ايضاً في هذا الجمع بين المسافرين الذين سرعان ما يجلسون للحديث والسمر ، ولم تمض دقائق على اجتماعهم ، ومن هذه الصور ، ومن عشرات مثلها منثورة هنا وهناك في تضاعيف القصة ، يريد المؤلف ان يقول ان « اهل مصر شعب أصيل عريق . . . . » وان « الاجتماع في دمنا والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال »

ويقابل المؤلف بين الفلاح — او المصري اذا شئت — وبين التركي والعربي ، فيرفعه فوقهما درجات ، ويجعلك تسخر من الاول في شخصية ام « محسن » بل انه ليملأك غضباً منه بما تأتيه هذه التركية المتعجرفة من الغلظة والقظاظة . وانظرها ترد عنها فلاحة قدمت ترحب بها

— بعيد ... بعيد ... حاسبي توسخي فستاني ... وتجيبها الفلاحة في حلم وبشر ضاحكة الوجه

— يوه ! مش متنا نبوس ايدها ! امال نبوس ايد مين ؟

وقابل بين الاثنتين ! او بين الاثنين، الفلاح برداعته وحلمه وسعة صدره ، والتركي بما ترى منه في هذا المشهد ! . أما ما بين الفلاح والعربي فهذا شيخ العربة — ولا اقول للمؤلف — ينعت العرب بأنهم « جماعة خطافة جرانيم . . . » وقد احيلك اذا شئت ان تعرف رأي المؤلف صراحة في هذا على كلمة له نشرها في مجلة « الرسالة » الغراء بخطاب مفتوح للدكتور طه حسين . على ان المؤلف في القصة يمتدح الفلاح ويرجع هدوءه ووداعته الى كرم الاصل « فهو اصل الاصول » لا الى ذل العبودية، كما يرجعهما الى حياته الزراعية العريقة التي تتطلب السلام والاستقرار ، فهدوؤه ليس خنوعاً ولا ذلة ، وجموح العربي وحبه الحرب والثأر والدم ليس بالشرف الذي لا يطاول ، ولكنه بقايا الحياة الهمجية الاولى التي اساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة القبيلة !. وكما سمح المؤلف للتركي على لسان ام محسن ان تسب الفلاح، سمح للفلاح على لسان شيخ العربة ان يسب العربي ، وكأنه بذلك يرد الى الفلاح اعتباره، ويوسع له في المجال لينتقم لنفسه من هذه العناصر التي دخلت وطنه فاعتبرت نفسها ، وهي الدخيلة، ربة الدار ، واعتبرت الفلاح — او قل المصري — وهو الاصيل وأصل الاصول ، الدخيل المتطفل . وان المؤلف لجدير بأكليل نضر من نبت ارض الوطن جزاءاً لهذا الكريم المعتز بالوطن

وان المؤلف يضفي على الريف المصري لوناً من القداسة حتى لكأنه محراب كاهن، ويجعله منارا لقوة العقيدة الخالصة والايمان الخالص ، ويدفعنا في قوة وعنف الى الوراء ، الى مصر الفرعونية . ويبرز لنا من هذا الريف ومن ابنائه صورة صوفية في تآلفهم وكدحهم وتحمسهم في سبيل المعبود ! المعبود المتمدد — على التاريخ — الاسماء والاشكال والرموز ، صورة فيها هذا الجوهر الباقي الخالد الذي يربط بين مصر اليوم ومصر الامس ، روح الجماعة ، او روح المعبد كما عبر عنها المؤلف على لسان الفرنسي في هذا الحوار — الذي هو مفتاح القصة — بينه وبين زميله الانكليزي . وكما وجدت هذه الروح في مصر الفرعونية « فتحول الشعب كله الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الالم في سبيل واحد : خوفو ممثل المعبود ورمز الغاية . . . » وجدت مرة اخرى في مصر الحاضرة، ولم يكن ينقصها الا المعبود « ذلك الرجل الذي تتمثل فيه كل عواطف الشعب وأمانيه ويكون له رمز الغاية . . . » وكما اتت هذه الروح في المرة الاولى بمعجزة الاهرام ، أتت « عودة الروح » في المرة الثانية بمعجزة الثورة ! عادت الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، عادت وكنت تحت الرماد ، « كنت في البئر . . . في البئر التي خرجت منها الاهرامات ، في القاب ، القاب الذي لا قاع له وهو قوة مصر، وهي بذلك تغاير قوة اوربا الكائنة في العقل تلك الآلة المحدودة التي يجب ان تملأها نحن بارادتنا »

وقد لمست عودة الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، في ثنايا القصة ، في كل مشهد منها ، وكل حادثة فيها ، في صورتها الصغرى في حياة « الشعب » الذي يتألف من محسن وسليم وعبده ومبروك وحنفي وزنوبة ، وفي صورتها الكبرى في ثورة « الشعب » الذي يتألف من هذه الملايين ،

هذه الروح التي تجعل « الكل في واحد » : كان المصري القديم يعبر عنها في ندبه موتاه قائلاً « عند ما يصير الوقت خلوداً سنراك من جديد ، لانك سائر الى هناك ... حيث الكل في واحد » ولعلك تدرك معي الآن لماذا سجل المؤلف هذه الجملة في صدر الجزء الاول من قصته . والمصري الحديث يحس هذه الروح في اعماق قلبه . وليست الثورة الا نتاجاً لها : لهذه الروح ، روح الجماعة ، روح المعبد . الثورة التي اندمجت فيها الملايين فأصبحت قلباً واحداً ، وعاطفة واحدة ، وفكرة واحدة ، عادت روح المعبود ، واجتمع الشعب حول رمز للمعبود الذي تمثل في رجل خرج من صلب الفلاح ، والثورة لا تقوم الا على روح الجماعة ، فلما عادت الروح ، هبت الثورة ، الثورة التي جعلت « الكل في واحد » وعاد المصري يغترف من قلبه الذي لا ينضب ، قلبه الذي تجمعت فيه رواسب الف قرن !!

ولعلك تعود الى هذا الحوار بين الفرنسي والانكليزي تسمع تفاصيل هذه القضية التي يعرضها المؤلف عرضاً قوياً أخاذاً ، ولترى هذه المقارنة التي يعقدها بين مصر التي تؤمن بالقلب الذي لا قاع له ولا حد له ، وبين اوربا التي يسوقها العقل المحدود ، والآلة التي علاها نحن بما نريد !!

وفي هذا المشهد الذي يرى فيه محسن الطفل والعجل يرضعان معاً من ثدي بقرة يتحدث فيه المؤلف عن قلب مصر ، وعن شعور مصر ، وعن سر تأليه قدماء المصريين للحيوان بل الطير والحشرات . « وكما جعلوا الاله على صورة رجل ، جعلوه ايضاً على صورة الحيوان والطير والحشرات . أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله ؟ فلم لا تمثل صورها الاله كما تمثله صورة الرجل !! » ويستدل المؤلف من هذا على ان قدماء المصريين كانوا « يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين حلقات المخلوقات المختلفة »

« والشعور بالاندماج في الكون ، اي بالاندماج في الله هو شعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين ، هو شعور الملائكة ، وهو ايضاً شعور ذلك الشعب العريق المصري القديم ... »

فروح مصر : هي روح « الكل في واحد » وقلب مصر ، هو هذا القلب الذي يحس بالوحدة الكونية ، ويشعر شعور الملائكة ، ثم ها هو حوريس يصيح « انهض ، انهض يا اوزوريس ! انا ولدك حوريس ... جئت اعيد اليك الحياة ... لم يزل لك قلبك الحقيقي ... قلبك الماضي » وليس اوزوريس وحوريس الا رمزاً لمصر القديمة ومصر الحديثة . وقد جاءت مصر اليوم توقظ مصر الامس ، وتبعثها من جديد ، وتعيد اليها الحياة ، بقلبها الحقيقي ، قلبها الماضي : قلبها الذي يشع طهراً ونبلاً وملائكية

ولعلك ادركت لماذا سجل المؤلف هذه الجملة على صدر الجزء الثاني من قصته

وفي هاتين الجملتين اللتين صدر بهما المؤلف جزئي قصته مفتاح القصة كلها ، والسر الذي ان لمسته فقد استطعت ان تعلك المصباح الذي ينير امامك الطريق لتفهم « عودة الروح » فهماً صحيحاً ، فتنفذ من وراء ظواهرها البراقة الى لبها وجوهرها ، ولست ادعي اني خضت العباب واقتحمت اللجة : ولكن لعلي وقفت بك على الشاطىء ، ووضعت في يدك المقذاف ، واذا كنت قد أريت لك قبساً ولو ضئيلاً ، قبساً تخلق منهُ شعاعاً ، ومن الشعاع نوراً يهديك وسط هذا العباب الخضم ، فاني سعيد مغتبط ، لم يذهب جهدي سدًى ولا قبض الريح . وهذا حسبي